عالم الأرواح في رسالة أفسس

القس عيسى دياب

"عالم الأرواح" أي العالم الذي تعيش وتعمل فيه الأرواح الخيِّرة والأرواح الشريرة، المخلوقات المدعوة شياطين أو ملائكة، ولا أعني "العالم الروحي" الذي هو عالم الله، ولا "عالم الروح" الذي هو المكان الذي تذهب إليه نفوس (أرواح) الأبرار بعد الموت، أو الحالة الروحية التي صارت ليوحنا عندما تجلت له رؤياه (رؤ ١: ١٠). لبولس، أو لكاتب رسالة أفسس، تعليم عن عالم الروح، لا بد أن يكون قد استقاه من النظريات التي كانت سائدة في أيامه، ومنها ما هو يهودي عرفته جماعة قمران، ومنها ما هو يوناني تعرف إليه بولس بواسطة تعرضه للفكر اليوناني. أستعرض أولاً التعليم الكتابي كما سطره بولس، أو من عكس فكره، في رسالة أفسس، ثم أحاول أن أرسم النظام الكوزمولوجي، واضعاً فيه "عالم الأرواح"، خاصة في هذه الرسالة، كما كان بولس وغيره في أيامه يتصورونه. وأحاول قدر المستطاع أن أحصر الكلام عن الموضوع في رسالة أفسس، وإلا يلزم جهدٌ ومساحة أكبر.

أولاً: استعراض النصوص البيبلية في أفسس حول عالم الأرواح

يتجلى تعليم كاتب رسالة أفسس (بولس أو أحد تلاميذه) عن عالم الأرواح في هذه الرسالة بشكل واضح. فالله الآب أقام المسيح من الأموات، "وأجلسه عن يمينه في **السماويات فوق كل رياسة وسلطان وقوى وسيادة وكل اسم يُسمى**، ليس في هذا الدهر فقط، بل في المستقبل أيضاً" (١: ٢٠-٢١). يذكِّر الكاتب الأفسسيين بمرحلة ما قبل الاهتداء إلى المسيح: "وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم، حسب **رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن** في أبناء المعصية" (٢: ١-٢). "أقامنا وأجلسنا معه في السماويات" (٢:٦). ويتكلم الكاتب عن دور الكنيسة في نشر "سر المسيح"، فيقول: "لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة" (٣: ١٠). ثم يحني الكاتب ركبتيه في حضرة "أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمَّى **كل عشيرة في السموات وعلى الأرض**" (٣: ١٥). ويصف الكاتب صعود المسيح: "هو الذي صعد أيضاً **فوق جميع السموات** لكي يملأ الكل" (٤: ١٠). التصاريح الأخيرة في الرسالة عن الحرب الروحية هي أوضح ما يكون عن عالم الأرواح: "إلبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس. فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع **الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات**" (٦: ١١-١٢). من بين الأسلحة المطلوب حملها "ترس الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا **سهام الشرير الملتهبة**" (٦:١٦).

تقوم نظرية كاتب رسالة أفسس عن عالم الأرواح على الأفكار التالية :

١- نلاحظ أن **السماويات** (epouranis)، التي يصعب تفسيرها بدقة، هي المكان الذي أجلس الله الآب فيه المسيح عن يمينه (١: ٢٠)، والمكان حيث أجلس الله المؤمنين بالمسيح أيضاً (٢:٦)، والمكان الذي تصل

شهادة الكنيسة إليه ويُعَرَّف بحكمتها "عند الرؤساء والسلاطين" (٣: ١٠)، وهي، في نفس الوقت، المكان الذي تتواجد وتعمل فيه الرؤساء والسلاطين وولاة العالم على ظلمة هذا الدهر (الأرواح الشريرة) (٦: ١٢)، وهذا أمر غريب. من جهة ثانية، تسمى المنطقة التي يعمل فيها ومنها الشرير "**الهواء**" (٢: ٢). فهل نفهم من هذا أن "**السماويات**"، بنظر الكاتب، هي منطقة "**الهواء**" ؟ أو أن "السماويات" مقسمة إلى مناطق مختلفة ؟

٢- نلاحظ أن بولس يضع هذه المخلوقات الروحية (؟) على رتب متنوعة ومتدرجة (؟): "**رياسة وسلطان وقوى وسيادة وكل اسم يُسمى**، ليس في هذا الدهر فقط، بل في المستقبل أيضاً" (١: ٢٠-٢١)؛ **رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن** في أبناء المعصية" (٢: ١-٢)؛ "لكي يُعرَّف الآن عند **الرؤساء والسلاطين في السماويات** بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة" (٣: ١٠) ؛ **كل عشيرة في السموات وعلى الأرض**" (٣: ١٥)؛ **الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات**" (٦: ١٢).

٣- يقسم الكاتب "سكان الكون" إلى "عشائر" التي تعني أصنافاً من المخلوقات، منها ما هو أرضي ومنها ما هو سماوي وروحي (٣: ١٥). ويطابق هذا التعليم ما جاء في الفصل الخامس عشر من الرسالة الأولى إلى كنيسة كورنثوس، فصل كامل عن القيامة حيث يعدد أنواعاً مختلفة من "الأجساد"، والجسد في الفكر السامي هو كل المخلوق (أنظر ١كو ١٥: ٣٥-٤٢).

٤- لا شك أن الكاتب يقصد بالقوات والسلاطين والرياسات المجموعات الروحية الخيِّرة (الملائكة) والشريرة (الشياطين والأبالسة)، ونحار في أمرنا متى يقصد الكاتب، بهذه المخلوقات، أرواحاً خيِّرة، ومتى يقصد أرواحاً شريرة، ومتى يقصد بها "المخلوقات الروحية" بغض النظر خيِّرة كانت أم شريرة.

٥- يتكلم بولس عن مملكة روحية شريرة، يرأسها رئيس "روح": "**رئيس سلطان الهواء ، الروح الذي يعمل الآن** في أبناء المعصية" (٢: ١-٢).

ثانياً: عالم الروح في كوزمولوجيا العالم القديم

كان العالم القديم يقسم الكوزموس إلى ثلاث مناطق: اليابسة (الأرض)، تحتها وفوقها، وهذا واضح في رسائل بولسية أخرى: "لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن **في السماء**، ومن على **الأرض**، من تحت الأرض" (في ٢: ١٠). وكان يُعتقد بأن هذه المناطق الثلاثة مأهولة: الأرض بالبشر، فوق الأرض بالأرواح، تحت الأرض بالحيوانات الأسطورية الكبيرة التي تجسد الشر، وتحت الأرض عالم الموتى وسجن الأرواح الشريرة كما سنرى. لم تتغير كثيراً هذه الكوزمولوجيا منذ نشوئها قديماً وحتى بداية العصر الكوبرنيكي، أي أنها كانت سائدة في زمن العهد الجديد.

وينطلق الكاتب في أفسس من المفاهيم القديمة، فيتطرق إلى ثلاثة أقسام رئيسة للكوزمولوجيا: (١) تحت الأرض، (٢) الأرض، (٣) فوق الأرض الذي يُدعى غالباً السماء، يدعوه بولس هنا بأسماء مختلفة: "الهواء" (٢: ٢)، "السماويات" = الأماكن "السماوية". "تحت الأرض"، ويدعوه بولس في هذه الرسالة "أقسام الأرض السفلى" (٤: ٩) التي تعني إما القبر أو الهاوية ("شِئول" بالعبرية، و"هادس" باليونانية) حيث مثوى الأموات وسجن بعض الأرواح التي تمردت قديماً على الله (٢بط ٢: ٤؛ يه ٦؛ أنظر لو ٨: ٣١؛ رؤ ٢٠: ٢ و٣). الأرض، البسيطة، اليابسة أو سطح الأرض، هو مكان سكنى وعمل الأحياء من البشر والبهائم، حيث الشجر والنبات

والزرع. أما فوق الأرض، الهواء، الأماكن السماوية، فهو على طبقات. تكلم بولس عن "السماء الثالثة" حيث الفردوس (٢كو ١٢:٢). هذه هي "السماويات" أو "الأماكن السماوية" أو "الهواء" في أفسس. تأخذ هذه المنطقة الحيز الأكبر من بحثنا في هذه المقالة.

كان العالم القديم يؤمن إيماناً قوياً بالشياطين وبالملائكة، وبالأرواح الشريرة والأرواح الخيِّرة، وكانوا يعتقدون أن منطقة الهواء مزدحمة بهذه المخلوقات الروحية. ينقل لنا أستاذ العهد الجديد المشهور، وليم باركلي، أقوال بعض حكماء اليونان عن عالم الأرواح[١]: قال فيثاغوروس: "إن الهواء كله مليء بالأرواح". قال فيلو: "هناك أرواح تطير في كل مكان في كل الهواء"؛ "إن الهواء هو بيت الأرواح التي لا أجساد لها".

هذا الهواء هو أيضاً **"السماويات"** وهذه مقسمة إلى مناطق مختلفة: منطقة سكن الله والأرواح الخيِّرة، منطقة سكن الشيطان والأرواح الشريرة، ولكن نرى في النصوص البيبلية أن هاتين المنطقتين تتداخلان في كثير من الأحيان. في ٥:١، حيث يستعملها الكاتب لأول مرة في الرسالة، وقد تعني "الأمور السماوية" أو "الأماكن السماوية". لكن هذا المعنى الأخير هو المُفضَّل، مقارنةً مع الأماكن الأخرى في الرسالة حيث ترد هذه الكلمة (١: ٢٠؛ ٢: ٦؛ ٣: ١٠؛ ٦: ١٢). في ٥:١، يُفيد بولس بأن السماء (= الأماكن السماوية) هي مصدر كل البركات الروحية التي يشكر الله من أجلها. كيف لا، وفي مكان ما في هذه "السماويات" جلس المسيح عن يمين الآب، وأضحى أعلى وأعظم من كل القوات والرؤساء والسلاطين برتبها المختلفة وأقسامها المتنوعة (١: ٢١-٢٢). في منطقة أخرى من هذه "الأماكن السماوية" تدور رحى الحرب الروحية من جهة، بين الأرواح الشريرة والأرواح الخيِّرة، ومن جهة أخرى، من الأرواح الشريرة ضد المؤمنين بالمسيح (٦:١٢). ما هي علاقة هذه المنطقة بالمنطقة الأخرى حيث المسيح جالس عن يمين الآب؟ نعرف من سفر أيوب أن بني الله (الملائكة) والشيطان جميعهم يستطيعون أن يمثلوا في محضر الله في هذه الأماكن السماوية (أي ٢:١).

في "الهواء" مملكة منظمة، هي مملكة الظلام. لهذه المملكة "الهوائية" رئيس، هو الشيطان، وجيش بفرقه وأوليته: قوات، سلاطين، رياسات وسيادات. ومواطنو هذه المملكة مخلوقات روحية: "محاربتنا ليست مع لحم ودم (كائنات بشرية)". ليس هذا غريباً عن مفهوم الأناجيل (أنظر مت ١٢: ٢٤؛ يو ١٢: ٣١)، ومتفق مع تعليم بولس في رسائل أخرى (أنظر ٢كو ٤: ٤؛ كو ١: ١٣). و"أبناء المعصية (كل الذين عصوا على مثال آدم)، الذين ما زالوا على مثال آدم الأول، هم المساحة التي يعمل فيها جنود مملكة الظلام في الهواء، وهو أيضاً القناة أو الواسطة التي يهاجم بها جنود الشيطان أبناء النور من البشر. ويمكننا أن نقول إن هذه المخلوقات الروحية الشريرة تحقق مآربها على الأرض في عالم البشر من خلال بشر أمثالهم هم "أبناء المعصية".

نستطيع أن نلمس هذا الفكر في سفر دانيال. أرسل ملاك ليشجع دانيال المرتمي على الأرض تعباً من رؤيا غريبة رآها وأثقلت كاهله. ولكن "رئيس مملكة فارس" أعاق الملاك المرسل ووقف مقابله لمدة واحد وعشرين يوماً، حتى أرسل ميخائيل "واحد من الرؤساء الأولين" لإعانة الملاك الأول وإنقاذه من رئيس مملكة فارس وتسهيل طريقة ليصل إلى دانيال (أنظر دا ١٠). وكل هذه الأحداث تحدث في "الهواء"، هذا العالم المزدحم بالشياطين والملائكة.

يوجد مثل هذا الفكر في تعاليم

١ – وليم باركلي، **تفسير العهد الجديد، رسالتا غلاطية وأفسس**، تعريب عبد المسيح اسطفانوس (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٠) ١٥٢.

جماعة قمران، وقد نقله "العارفون" إلى الكنيسة. يعتقد Teyssedre أنه يمكن تفسير هذه الرسالة على مستويين، "على المستوى العام، حيث يُكتفى بالمواعظ الخلقية، وعلى مستوى المعرفة السرية الذي يستحيل الدخول إليه من دون التفاسير المنقولة شفاهاً بواسطة "العارفين" في كل كنيسة"[2]. وفي كل الأحوال صراع النور والظلام، ومملكتا النور والظلام تأخذان حيزاً كبيراً من الفكر القمراني.

يعلم بولس في مكان آخر أنه بالإيمان بالمسيح، "أنقذنا الآب من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته" (كو ١:١٣). لذلك، فالتسالونيكيون ليسوا أبناء ظلمة بل أبناء نور وأبناء نهار (١ تس ٥:٥). يحث كاتب أفسس قرّاءه، كونهم كانوا ظلمة وأما الآن نور في الرب، أن يسلكوا كأولاد نور (أف ٥:٨).

لا أدري إلى أي مدى نستطيع الأخذ بحرفية هذه الصورة، وإلى أي حد ينطبق التفسير الاستعاري عليها؟ اجتهد مفسر فقال: "من الأكثر احتمالاً أن الرسول أراد أن يوضح بهذا أن الشيطان والأرواح الساقطة، كونها بطبيعتها روحية، ليست كالبشر معلقة بهذه الأرض، بل تمارس سلطانها في المناطق العليا، التي يدعوها الرسول "السماويات" (٦:١٢)[3]. لكن، على ما أعتقد، كان كاتب الرسالة مسلماً بهذه الصورة الحرفية لعالم الأرواح. أو، كما يظن Teyssedre ، "أن الإشارة، في الرسالة إلى أفسس" إلى عدة رتب من القوات النجمية [الفلكية] تكون لغزاً إذا لم تكن باطنية. يمر كل شيئ كأنما العامة مدعوون للاستماع إلى درس كانت معانيه وأبعاده الشاملة والمباشرة مجهولة، لكن معناه العميق كان مقصوراً على الطبقة المستنيرة". وهكذا كانت الحال في المجموعات الباطنية السرية، لأنّ هذه كانت محاربة من كتاب العهد الجديد وآباء الكنيسة. لذلك، أعود إلى رأيي المصرح به إعلاه، أن بولس وغيره، في ذلك الوقت، كانوا يسلمون بحرفية الصورة، أي بوجود عالم أرواح، في "الهواء" أو في "الأماكن السماوية". كثير من الفلاسفة والأدباء العلمانيين اليوم يسلمون بوجود هذا العالم، ويقدمون الأدلة التاريخية والأدلة الفلسفية عنه[4]. لماذا لا نقول إنه يوجد "عوالم"، ونحن معشر البشر لا نرى ولا نلمس إلا العالم المادي الذي نعيش فيه؟ وكما أنه يوجد على الأرض ألوان كثيرة غير تلك التي يمكننا أن نراها، وأصوات كثيرة غير تلك التي يمكننا أن نسمعها، لأن عيوننا مخصصة فقط لهذه الألوان التي نراها، وآذاننا مهيئة فقط لهذه الأصوات التي نسمعها، لما لا نسلم بوجود عوالم أخرى في هذا الكون، ولكننا كبشر، ليس بإمكاننا رؤيتها ولمسها في كياننا الهيولي الذي نعيش فيه؟ إن صورة رسالة أفسس عن عالم الأرواح، فيها كثير من الاستعارة، فيها كثير من المفاهيم الكوزمولوجية التي أصبحت مغلوطة بعد اكتشاف النظام الكوبرنيكي، لكن فيها أيضاً كثير من الحقيقة المنطقية والإيمانية.

2- Bernard TEYSSEDRE, *Le Diable et l'enfer au temps de Jésus* (Paris : Albin Michel, 1985) 136.
3- Louis BONNET, *Epître de Paul* (NT 3. St Légier : Emmaüs, 1983) 374.
4- Laurent GUYENOT. *Dieu, l'homme et l'ange* (Paris : Guy Trédaniel éditeur, 1994).